موقف العلماء والمفسرين
في ردّ دعوى التعارض في القرآن الكريم

أ. عبدالعزيز الصالح
جامعة التحدى – سرت
قسم اللغة العربية

تمهيد:

عرض العلماء والمفسرون لهذه القضية الخطيرة، فهذا القاضي عبدالجبار الهمداني يتصدى للطعن الموجه إلى النص القرآني – ويناقشه نقاشاً مستفيضاً في كتابه: (تنزيه القرآن عن المطاعن)، وقد ضمّ رداً مفحماً دعوى التعارض المزعوم.

وهذا ابن حزم الأندلسي يدفع شبهاً وتضاربا جاء بها ابن النغريلة اليهودي، فألفّ رسالة لدحض افتراءاته. ثم يأتي الزركشي في كتابة (البرهان) بتفصيلات وافية، في باب موهم الاختلاف والتناقض فيما يتعلق بهذه القضية، وإذا ما تابعنا الخطيب الاسكافي في كتابه: (درة التنزيل وغرة التأويل) وجدنا تأملات دقيقة واستخلاصات طريفة في معالجة ماشاع أنه تعارض وتناقض بين آى القرآن الحكيم.

وهنا لابد للباحث أن يتخذ منهجاً تاريخياً علمياً في بسط دعوى التعارض من حيث مقدماتها ومراحلها ونتائجها، متابعاً ومناقشاً الآراء وصولاً إلى حقيقة كاشفة وصورة جلية.

ما أصل التعارض أو التناقض..؟

إن التناقض بالمفهوم المنطقي هو وصف الشئ بالوجود والعدم في آنٍ واحد أو جمع السلب والايجاب معاً[1]. ومعلوم أن الشئ لايمكن أن يكون موجوداً ومعدوماً

---

1 مدخل إلى علم المنطق ص89– 90.

في آن واحد، وهذا مايعرف بقانون عدم التناقض الذي هو أحد القواعد الأساسية في التفكير الانساني.

ذكر القاضي عبدالجبار الهمداني: (إن التناقض من الكلام هو أن يكون أحد الكلامين يتضمن نفي مايثبته الآخر، أو اثبات ماينفيه الآخر أو ضد ما تناوله أو مايجري مجرى الضد..)[1]

وإلى هذا ذهب الزركشي بتحديد أدق، قال: (.. بحيث يشترك المثبت والمنفي في الاسم والحدث والزمان والأفعال، والحقيقة فلو كان الاسم في أحد الكلامين وفي الآخر مستعاراً، ونفي أحدهما واثبت الآخر لم يعد تناقضاً..)[2].

والتناقض بهذا المدلول منتفي، ولاوقوع له في القرآن الكريم. وقد تناول المفسرون ذلك في قوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً﴾[3].

والناظر في تفاسيرهم وشروحهم يظهر له أن مفهوم التعارض أو الاختلاف أشمل، فقد أورد القرطبي رواية عن ابن عباس يفسِّر الاختلاف المنفي بأنه التفاوت والتناقض[4]. ويقصد من اختلاف التفاوت (مايكون بالحسن والقبح والخطأ والصواب، وهذا الجنس ليس منه في القرآن شئ البتة)[5].

ومما يحسن ذكره أن علماء الأصول قد بحثوا التعارض بين النصوص القرآنية، وأرادوا به (تقابل النصين أو الدليلين على سبيل الممانعة، أي أن يقتضي كل من الدليلين عدم مايقتضيه الآخر، وأقروا مبدأ الترجيح الذي هو بيان الرجحان أي القوة التي لأحد المتعارضين على الآخر..)[6].

وقد وضعوا (قواعد تفصيلية للتوفيق بين الآيات القرآنية أو لدفع التعارض الظاهري)[7].

---

1 المغني في باب التوحيد والعدل: 387/16

2 البرهان: 53/2، معترك الاقران: 106/1.

3 النساء: 82

4 الجامع لأحكام القرآن 290/5، روح المعاني 92/5.

5 جامع البيان: 81/3.

6 دراسات في أصول تفسير القرآن ص139-140.

7 دراسات في أصول تفسير القرآن ص139-140.

ولابدّ لهذا التعارض من أصل في نشأة القول فيه وادعائه، إن عدداً من العلماء والباحثين يذكرون أن أول مسألة ظهر فيها الخلاف على أشده هي القول بالقدر[1]، ويحدد الشهرستاني أن مثيرها هو معبد الجهني، وكان ذلك في آخر أيام الصحابة – رضوان الله عليهم–[2]. وأشار أحد الباحثين المعاصرين إلى أن جدلاً دار في حياة الرسول –ﷺ– حول مسألة الجبر والإختيار، وإن الرسول –ﷺ– قد شارك في هذا الجدل، وقال عدة أحاديث تعارض الجبر وتؤيد القول بالحرية والاختيار).[3]

والباحث الواعي لايشك في أن تحري فهم القرآن قد بدأ منذ وقت مبكر، وأن عدداً من آياته تلك التي اصطلح عليها بالمتشابه[4] ، وقد أثارت جدلاً وصفه الدكتور محمد يوسف موسى بظهور عمل على معارضة القرآن بعضه ببعض فيما يتصل بمسألة القدر في عهد الرسول –ﷺ–.[5]

وربما تأثر الدكتور (موسى) برواية أوردها ابن سعد في طبقاته[6] أو تابع (كوتسيهر) الذى استند إلى هذه الرواية، قال: (إن المناقشات –يقصد ما دار بين المسلمين من كلام في القرآن الكريم كما تشير رواية ابن سعد– كانت تثير أعصاب النبي، وإنه كان يقع في ضيق عندما كان المؤمنون يشيرون إلى تعارض عقيدي في القرآن..)[7]. ولعل من المفيد أن ننقل رواية بن سعد نصاً: (أخبرنا عبدا لله بن سلمة بن ثعنب، قال: حدثنا عبدالعزيز بن أبي حازم عن أبيه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن ابني العاص أنهما قالا: ما جلسنا مجلساً في عهد الرسول –ﷺ– وكنا أشد اغتباطا من مجلس جلسناه يوماً، جئنا فإذا ناسٌ عند حجر رسول الله –ﷺ– ويتراجعون في القرآن، فلما رأيناهم اعتزلناهم، ورسول الله –ﷺ– خلف الحجر يسمع كلامهم، فخرج علينا رسول الله –ﷺ– مغضباً يعرف الغضب في وجهه حتى وقف عليهم، فقال: أي قوم، بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على انبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض، إن القرآن لم ينزل لتضربوا

---

1 القرآن والفلسفة ص102.
2 الملل والنحل 3/1.
3 المعتزلة والحرية الانسانية ص23 – 25.
4 المقدمة ص463.
5 القرآن والفلسفة ص30–32.
6 الطبقات الكبرى: 192/4.
7 العقيدة والشريعة ص69.

بعضه ببعض، ولكن يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به وماتشابه عليكم فآمنوا به، ثم التفت إلي وإلى أخي، فغبطنا أنفسنا أن لايكون رآنا معهم...)[1].

هذه الرواية بتمامها ليس فيها دليل على ماقيل، وغاية ما تدل عليه أن قوماً كانوا يتراجعون في القرآن، وطبيعة هذه المراجعة الذكر والفهم.

وهذا التوجيه النبوي الذي تضمنته الرواية لايدل إلا على منع الخوض في القرآن من دون حجة أو دليل، كما أن آخر الرواية يشير إلى أن النص يتعلق بنوع تكليف، مفاده: اعملوا به، وليس المراد كما تصور الدكتور (موسى): أي بلا بحث وتفكير.[2] أليس القرآن يحض على الفهم والوعي، قال تعالى: ﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمّاً وعمياناً﴾[3].

كما أن هذه الرواية لها اسانيد أخرى يفهم منها الدافع الذي حدا بالرسول -ﷺ- إلى التصريح بمضمونها. فقد أورد الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، قال: (حدثنا عبدا لله، حدثني أبي ثنا أبومعاوية ثنا داود وبن هند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: خرج رسول ا لله -ﷺ- ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: وكأنما تفقأ في وجهه مثل حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: مالكم تضربون كتاب ا لله بعضه ببعض، بهذا هلك من قبلكم...)[4].

كما أورد ابن حنبل هذا الحديث بسند آخر: (... إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول ا لله -ﷺ- مغضباً قد أحمّر وجهه يرميهم بالتراب، ويقول، مهلاً ياقوم، بهذا هلكت الأمم قبلكم باختلافهم على ابنيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا، بل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم فردوه إلى عالمه..) [5].

وهذه الرواية الثانية التي أوردها ابن حنبل هي الأرجح، وذلك لأنها مما اتفق

---

1 الطبقات الكبرى: 192/4.
2 القرآن والفلسفة ص32.
3 الفرقان/ 73.
4 مسند ابن حنبل 185/2 وفي رواية: (يتدارؤون) أي يتخاصمون.
5 مسند ابن حنبل 185/2 وفي رواية: (يتدارؤون) أي يتخاصمون.

عليه الشيخان كما ذكر الشيخ إبراهيم بن حمزة الحنفي[1]، في سبب ورود قوله -ﷺ-: (إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في كتابهم..)، أنه كان لاختلاف رجلين في آية من كتاب الله، وقد نقل ابن كثير في تفسيره الرواية نفسها، وقال في تخريج الحديث: رواه مسلم والنسائي من حديث عمار بن زيد.[2]

نعلم مما تقدم أن دعوى وجود تعارض بين نصوص القرآن الكريم لم يثرها أحدٌ في عهد الرسول -ﷺ- وإذا كان جدلٌ فغالباً ما يتناول مسائل ليست من صلب العقيدة، وإنما في مسائل شرعية جزئية.[3]

ويعلل الدكتور -محمد يوسف موسى سبب عدم إثارة وجود تضارب بين النصوص القرآنية راجعٌ (إلى النهي عن الجدل وروعة القرآن وتأثر العرب بذلك، والاستغراق في الحرب، ووجود الرسول -ﷺ- حيّاً يهديهم السبيل السوي ويوضح لهم ما يسألون عنه مما يجدونه غامضاً، ويرى أن لكل تلك الأسباب الأثر في انصراف المسلمين عن معارضة القرآن بعضه ببعض)[4].

وقد أدرك ذلك الخطابي بعلمه ودرايته أن لاتعارض حقيقياً ساعدهم على ذلك وجود الرسول بين ظهرانيهم وإدراكهم زمان الوحي وإزالة نور الصحبة عنهم ظلم الشكوك والاوهام[5].

إن تبايناً في فهم النص القرآني واجتهادا من دون دليل بدأ يظهر في هذه الفترة ثم يتسع بتدرج خطير في أواخر عهد الصحابة رضوان الله عليهم.[6] يدلنا على ذلك ما جاء في الرواية التي أوردها البخاري بسند صحيح[7]، مفادها: أن رجلاً جاء ابن عباس يسأله عن آيات وجدها تتخالف، وماتنبئ فحوى الرواية أن الرجل لم يثر ذلك بدافع التشكيك، بل كان طالباً الفهم مستوضحاً القصد، لأنه مما وقر في الأنفس واستقرت عليه الأفهام أن القرآن يصدق بعضه بعضا، كما أنه لم يكن على قدر من الفهم بمذاهب العرب وأساليبهم كما يقتضيه الحال في مثل هذا المقام

---

1 البيان والتعريف 272/1.

2 تفسير القرآن العظيم. 347/1.

3 تمهيد لتاريخ الفلسفة ص271-272.

4 القرآن والفلسفة ص30.

5 الاتقان 27/2، تمهيد لتاريخ الفلسفة ص32.

6 الملل والنحل 30/1.

7 صحيح البخاري 35/6. الزركشي/البرهان 59/2.

كما يذكر ابن قتيبة.[1]

ومما هو حريٌّ بالذكر أن رجلاً قال للامام علي -كرم الله وجهه- (لولا مايوجد في كتابكم من تناقض لأسلمت، ويسأله الإمام علي مستوضحاً، وما هذا..؟ فيسأل الرجل عن مسائل ويجيبه الإمام اجابات وافية، وأغلبها من المتشابه).[2]

وتشير رواية أخرى عن قتادة أن رجلاً سأل عكرمة[3]، قال: أرأيت قول الله: ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾[5].

وإلى مثل هذه الآيات ينفث الخصوم سمومهم، فهذا ابن النغريلة اليهودي يجعل هذا النص من القرآن الكريم موضع تعارض، فيتصدى له ابن حزم بالردّ قاهراً دعواه مسفهاً هواه كما اسلفنا[6].

وفي كتاب البينة والردّ على الأهواء والبدع يذكر أبوالحسين الشافعي الملطي أن مقاتل بن سليمان (ت: 150هـ) عنى بتأويل الآيات التي سئل عنها ابن عباس.[7]

وحين ينقل الباحث خطاه إلى فترة تالية من الزمان يواجه من يثير مشكلة التعارض المزعوم بين آيات القرآن المبين مدفوعاً بتعصبٍ وخصومة ضد كتاب الأمة الأعظم.

إن أبرز من يطالعنا بدعواه هو ابن الريوندي الملحد الذي أثار شكوكاً ووجّه طعوناً إلى كتاب الله ورسالة النبي -ﷺ-[8]، فأعدّ له جمع من العلماء والمتكلمين العدّة فأبانوا زيف دعواه وتهافتها[9]، وأبطلوا مقالته وكشفوا عن سوء الظاهر

---

1 تأويل مشكل القرآن ص10.
2 علي والفلسفة ص139.
3 مجمع البيان 218/5.
4 سورة المرسلات. الآية 35.
5 سورة الزمر. الآية 31.
6 المسألة في الردّ على ابن النغريلة ص45.
7 المسألة في الردّ على ابن النغريلة ص45.
8 من تاريخ الالحاد في الاسلام (الفصل القيّم عن ابن الريوندي ص75-188، تاريخ ابن الريوندي الملحد).
9 المغني 340/16 ومابعدها، المنتظم 100/6 ومابعدها.

وخبث الباطن.

ثمّ يتابع الرازي الطبيب ابن الريوندي -اسفاً- ويحمل فريته قائلاً: (وا لله لقد تعجبنا من قولكم إن القرآن معجز وهو مملوء من التناقض)[1].

يذكر الدكتور بدوي أن الرازي حين يشير إلى التناقض المزعوم، فذلك مايتصل بموضوع التنجيم والتشبيه من جهة ونفي المثلية من جهة أخرى، إذ وردت نصوص ظاهرها كذلك، وبما يتصل بمسألة الاختيار أيضاً.[2]

وإذا ما غادرنا سالف العصور وانتهى بنا المطاف البحثي إلى عصرنا هذا وجدنا عدداً من المستشرقين يتولون اشاعة هذه الفكرة -التعارض- مع حماسة شديدة في نشرها وإذاعتها تحت ستار العلمية والموضوعية.

فهذا كولد تسيهر يقول: (ومن العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهباً عقيدياً موحداً متجانساً وخالياً من التناقضات..)[3].

ثم يتابع مقالته: إن القرآن كان معرضاً لحكم النقاد في حياة النبي ويذهب مذهبا شططاً: (ومثل هذا النقد كان صواباً خلال الجيل الأول التالي لظهوره إلى درجة لم يكتف بأن يتهم خصوم الاسلام بكشف مافيه من مواطن ضعف فيه فقط، بل ذهب الأمر إلى درجة أن البحث في التناقضات الظاهرة في القرآن أصبح موضع حديث بين المؤمنين أنفسهم)[4].

وحين يوجه الباحث نظراً فاحصاً يتضح له أن أقوال المستشرقين هي ترديد جديد لمقولات المشركين والمتشككين الذين عاصروا القرآن.[5] نقرأ مثلاً لـ (ولهوزن) فتظهر لنا أقوال الرازي الطبيب طافية على فكره في مسألة الجبر والاختيار، يقول: (يبرز في القرآن شأن القدرة الالهية تارة وشأن العدل الالهي تارة أخرى، وذلك بحسب ما كان يحس النبي دون مراعاة للتوازن بين الطرفين، ولاشعر محمد بما في ذلك من تناقض)[6] كما ردد هذه الأباطيل نيكلسون ومكدونالد

---

1 من تاريخ الالحاد ص418.
2 من تاريخ الالحاد ص418.
3 العقيدة والشريعة ص68-69.
4 المصدر نفسه.
5 نظرات استشراقية ص150.
6 المستشرقون والاسلام ص18.

وشاخت.[1]

وذهب دي بور إلى هذا الرأي الفاسد قائلاً: (وقبل الرعيل الأول من المؤمنين ما في القرآن من اختلاف نعلله نحن بتقلب الظروف التي عاش فيها النبي، وباختلاف أحواله النفسيه، وسلموا به دون أن يتساءلوا: كيف..؟ أو لم..؟)[2].

وقد يكون مناسباً أن نذكر أبرز النصوص التي تتعلق بموضوع البحث (التعارض). قال تعالى: ﴿ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر..﴾[3].

وهذه الآية تدل على اسناد الفعل إلى الإنسان واختياره، وهناك عدة آيات بهذا المعنى، وقد يسند الاختيار في الافعال إلى الله تعالى، كما في قوله: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله..﴾[4].

وهناك مسائل سئل عنها ابن عباس أوردها البخاري[5]، منها: قال تعالى: ﴿فلا انساب بينهم يومئذ ولايتساءلون﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾[7]، وقال تعالى :﴿.. أم السماء بناها﴾[8] ، وقال: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾[9] ، فجاء ذكر السماء قبل خلق الأرض، ثم قال: ﴿أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. قالتا أتينا طائعين﴾[10]، فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء.

وقال تعالى: ﴿قل أإنكم لتكفرون بالدي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها، وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيامٍ سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء، وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا: أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين،

---

1 المصدر السابق، دراسات في الفكر الاسلامي ص86.
2 تاريخ الفلسفة في الاسلام ص48.
3 سورة الكهف الأية 29.
4 سورة الإنسان. الآية 30.
5 صحيح البخاري 35/6. البرهان 59/2 ومابعدها.
6 المؤمنون/101.
7 الصافات/27.
8 النازعات/ 27.
9 النازعات/ 30.
10 فصلت/ 8-12.

واوحى في كل سماء أمرها..﴾[1]

وقد أجاب عنها ابن عباس والعلماء من بعدُ والمفسرون على مرِّ الحقب بما لايترك شكاً لمرتاب.

وعلى الجملة فإن الملحوظ أن هذه الجوابات تستعين بدلالة الآيات البيّنات الأخر التي تتعلق بالموضوع نفسه ويسلم لها التأويل ويتنفي حينئذ ما يظهر لغير المتدبر والمتأمل من تعارض ظاهري.

جاء في الاتقان أن الخطابي قال: (إنه سمع ابن أبي هريرة يحكي عن أبي العباس بن سريح، قال: سأل رجل بعض العلماء عن قوله تعالى: لا أقسم بهذا البلد. فأخبر أنه لايقسم به، ثم أقسم به في قوله تعالى: ﴿وهذا البلد الأمين﴾ فأجابه: أعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله -ﷺ- بحضرة رجال وبين ظهراني قوم. وكانوا احرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزاً وعليه مطعناً. فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به واسرعوا بالردّ عليه، ولكن القوم .. أي العرب.. علموا وجهلت -السائل-، ولم ينكروا منه ما أنكرت)، ثم أجاب بما حاصله أن العرب قد تدخل (لا) في كلامها وتلغي معناها..[2]

ويدلي الدكتور صبيح الصالح برأي في حتمية تضمن النصوص القرآنية مايسر التوفيق بينها، يقول: (أما إن المذاهب والفرق قد استخدمت آيات مختلفة، وقاوم كل منها الآخر بآيات قرآنية، فهذا أيضاً صحيح، ومثله يقع في كل ملة حول نصوصها التي مهما تكن في ذاتها قطعية، فإن دلالتها تظل ظنية احتمالية كما أوضح علماء الأصول.. وأما إن الآيات تتناول وجهين مختلفين لاتوافق بينهما ولاتتضمن النصوص المتعارضة ظاهراً مايسر التوفيق بينها، فهذا باطل شكلاً وموضوعاً..)[3].

ويستقصي الدكتور محمد يوسف موسى الآيات التي استدل بها الجبريون ويناقش ادلتهم نقاشاً رصيناً ويخلص إلى القول أنهم أخطأوا في التأويل لاقتطاعهم النصوص عن سياقها..[4].

---

1 فصلت/ 8-12.

2 الاتقان 30/2.

3 فلسفة الفكر الديني 364/3-365.

4 القرآن والفلسفة ص104 ومابعدها.

ولابن القيم رأي سديد خلاصته أن الله تعالى خالق كل شئ، وأنه خلق العبد وقدرته وإرادته، فهو يثبت لله الخلق كما يرى اصحاب الجبر، ويثبت للعبد الفعل كما يرى أهل الاعتزال، ويضاف العمل إلى الله تعالى لأنه خالقه ويضاف إلى العبد لأنه فاعله، وأن الله تعالى خالق قدرة العبد وإرادته وجميع أسباب الفعل، والأعمال تنسب إلى الله نسبة المخلوق إلى الخالق وتنسب إلى العبد نسبة المسبب إلى السبب.[1]

وإلى هذا الرأي سبقه إمام الحرمين الجويني على مايذكر الدكتور عبدالعظيم عبدالسلام، يقول الجويني: (لابّد من نسبة فعل العبد إلى قدرته حقيقة على وجه الاحداث والخلق، فإن الخلق يشعر باستقلال الايجاد من العدم، والإنسان كما يحس من نفسه الاقتدار يحسّ من نفسه أيضاً عدم الاستقلال، فالفعل يستند وجوداً إلى القدرة، والقدرة تستند وجوداً إلى سبب آخر..)[2].

وابن القيم فيما ذهب إليه لايرتضي فكرة الاختيار المطلق، ولافكرة الجبر ولانظرية الكسب الاشعرية، بل يهاجم تلك الآراء، ويرى أن المعتزلة والجبرية (في عمى عن الحق القويم، وإن كسب الأشعرية من محالات الكلام) [3].

ومن المعاصرين يرى الدكتور محمد عمارة أن القول بالاختيار هو ما كان عليه الصحابة الكرام والسلف الصالح من الأمة، وأن فكرة الجبر أمرٌ طارئ.[4] ويورد الدكتور عرفان عبدالحميد تأويلاً واعياً في هذا الموضوع، يقول: (إن القرآن الكريم إنما يعرض حالتين نفسيتين للروح المتدينة في موقفها من خالقها، حالة الشعور بعظمه الله وقدرته حتى يتضاءل بجانبها شأن المخلوقات كالانسان وغيره، فنجد آيات ظاهرها يفيد الجبر، وحالة شعور الإنسان أحياناً بقدرته الحادثة المحدودة، ذلك الشعور الذي يجعل للقدرة التي يستشعرها في نفسه بعض الحق في التأثير على مقدراتها، ومن ثم نجد آيات يفيد ظاهرها الحرية والاختيار والفاعلية.

والدين الحق الكامل – كما يقول الدكتور عبدالهادي أبوريدة –لابدّ أن يعبّر عن هذا كلّه، عن المطلق في اطلاقه وعن المحدود في محدوديته، وعن العلاقة

---

1 ابن القيم الجوزية: عصره ومنهجه ص366.
2 المصدر نفسه.
3 المصدر نفسه.
4 المعتزلة ومشكلة الحرية ص23–25 ومابعدها.

بينهما)[1]

ولنا هنا أن نقول أن القرآن يمتلك ناصية القول ويتصرف في وجوه الكلام بما يحقق أغراضاً ومقاصد ويشرّع لحياة.

وقد أثبت البحث الموضوعي أن القرآن جرى على سنن العرب في التعبير وأساليبهم في البيان إحكاما وعلواً في الصنعة[2]. وإذا كان هذا الكتاب الأكبر حقق اعجازاً وتفوقاً حكمة واسلوباً، فكيف إذن تسللت إليه شبهات وطعون ومقولات بالتعارض والتضاد؟

لنتذكر قوله تعالى: ﴿.. فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا..)[3].

مما سبق من خوض في البحث ندرك أن الخصوم سلكوا طريقاً منحرفاً عن النظر في النص القرآني ومحاولة الفهم والتفسير والتأويل. فكفوا أنفسهم مشقة البحث الدقيق والرجوع إلى الأصول والضوابط المعروفة، بل قادهم فكرهم المريض إلى شطط في المنهج وضلال في الرؤية، (وأغلبهم اكتفى بتحليل سطحي لمضامين القرآن، واتبعوا في ذلك طريقة التقطيع والتمزيق ليخرجوا إلى القول بأن القرآن كتاب فيه تضارب وتدافع وعدم انسجام..).[4]

أما الآخرون ممن تأولوا النص على غير وجهه الصحيح، فقد اتبعوا طريقة تقوم على اقتطاع آية أو جزء من آية عن سياقها ومن ثم تأويلها بما يتفق ومذهب المستدل بها، وهذا النمط من البحث يوصف بأنه (ليس من الحق في شئ، والواجب في تأويل القرآن ملاحظة السياق الذي وردت فيه الآية وعدم اكراهها لتؤدي وجهة نظر خاصة)[5].

وتطالعنا دراسة قيّمة للدكتور عبدالجبار ناجي، قدّم فيها تحليلا تاريخياً رصيناً للحركة الاستشراقية وكشف عن روح التعصب والتشويه التي اتسمت بها أغلب

---

1 المستشرقون والاسلام ص19.
2 التعبير القرآني ص10.
3 آل عمران/7.
4 المستشرقون (السابق).
5 القرآن والفلسفة ص105.

مؤلفاتهم، وقد نبّه إلى جانب خطير هو جهل هؤلاء بكثير من المظان العربية والاسلامية وضعفهم في اتقان اللغة العربية واسرار البيان فيها.[1]

ومن الإنصاف أن نبدي اعجابنا بفكر المستشرق بروكلمان (الذي ينتظر من كل مستشرق أن يفوته كثير من دقائق الاسلام في عقيدته وشريعته.. إما لتأثرهم بأديانهم، وإما لقصور في إدراك أساليب البيان العربي)[2].

حقاً الضرورة تقتضي تحديد منهج سليم يقود إلى فهم سليم، ويجدر بنا أن نذكر عدة مناهج في تفسير القرآن الكريم، وهذه المناهج مع كونها موجودة منذ عصر الوحي ونزول القرآن إلا أنها تأصلت بما أفادته من التطور الفكري والعلمي[3]، وبما فرضته طبيعة التحدي الداخلي والخارجي للفكر القرآني، وأبرز هذه المناهج، كما يشير إليها الدكتور أحمد السيد خليل: المنهج الأثري أو النقلي، المنهج العقلي، والرمزي والتمثيلي[4]، وأن الاستناد إليها في معالجة موضوعنا لسديد جم الفوائد، ومع ذلك تبقى فينا حاجة ماسة هي تحديد المنهج الذي نراه هو الأسلم لفهم النص القرآني.

إن المنهج الاسلم -كما استخلصناه- يقوم على أساسين:

الأول: تمكن مفسِّر النص القرآني من امتلاك عدّة علمية تناسب حجم مهمته واداء رسالته.

الثاني: اتباع خطوات معينة تعين على بلوغ الفهم الواعي، وبقول آخر، الاستناد إلى قواعد وأصول اساسية في تفسير النص، ولهذا فقد حدد العلماء شروطاً ومؤهلات يحوزها القائم على مهمة التفسير.[5]

وهذه الشروط المعروفة ضرورية لتفسير القرآن وتأويله، وقد حرص العلماء المتقدمون على حيازتها وامتلاك عدتها لغويا وتاريخياً وشرعياً، نجد السيوطي يتحراها ويؤكدها، يقول: (إذا كان العرب في الصدر الأول وهم أهل اللغة التي جاء بها القرآن على أعلى درجات البلاغة فيها لايعلمون إلا ظواهره وأحكامه،

---

1 تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي/ بتصرف.
2 تاريخ الادب العربي ص134.
3 دراسات في القرآن ص117، مناهج تجديد ص297.
4 دراسات في القرآن (السابق).
5 الاتقان 174/2.

أما دقائق باطنه، فإنما يظهر لهم بعد البحث والنظر مع سؤالهم النبي -ﷺ-، فنحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر، لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم..)[1].

وللشيخ محمد عبده التفاتة بارعة، يقول: (إن المفسِّر ينبغي عليه أن يكون على علم بالاساليب الرفيعة، وهذا يتأتى له من ممارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفطن لنكته ومحاسنه، والعناية بالوقوف على مراد المتكلم)[2]، ويضيف: (إن على المفسّر أن يحرز العلم بأحوال البشر، وما كان عليه الناس في عهد النبوة ونزول القرآن الكريم، والعلم بسيرة النبي -ﷺ- واصحابه، وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون..)[3].

وللشيخ الخولي تعقيب نابه في الموضوع: (إن القرآن حيث فرق الحديث عن الشئ الواحد في سياقات متعددة، ومقامات مختلفة، فإن هذا يقتضي في وضوح بأن يفسر موضوعاً موضوعاً، وأن تجمع الآيات الخاصة بالموضوع الواحد جمعاً احصائياً مستفيضاً، ويعرف ترتيبها الزمني ومناسباتها وملابساتها الحافة بها، ثم ينظر فيها بعد ذلك لتفسر وتفهم، فيكون ذلك أهدى إلى المعنى واوثق إلى تحديده...)[4].

ويتحرى الشيخ محمد حسن آل ياسين الطرق الأصولية الصحيحة (لتفسير القرآن وفهم أغراضه، هي تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، وتفسير القرآن بلغة العرب)[5]. وهذا الرأي يعضد رأي الشيخ محمد عبده الذي نقلناه.

وقبل أن نختم هذا البحث نقتبس من مقالة الدكتور بوكاي القيمة نصاً : (إن القرآن ليس يهدف بالأصل إلى عرض القوانين التي تتحكم بالكون، بل إن له هدفاً دينياً جوهرياً، والأوصاف الالهية هي المناسبة الرئيسية في توجيه الدعوات الى البشر إلى أن يتأملوا في أعمال الخلق، وتصاحب هذه الدعوات اشارات إلى أمور يمكن

---

1 الاتقان 174/2

2 الأعمال الكاملة للامام محمد عبده 12/4.

3 المصدر السابق.

4 مناهج تجديد ص306.

5 هوامش على نقد الفكر الديني ص101 ومابعدها.

للملاحظة الانسانية أن تدركها..)[1]

ثم نسجل رأيا دقيقاً للدكتور محمد يوسف موسى:

(إن القرآن وإن كان يتمثل فيه التحديد أحياناً كثيرة أو قليلة فيما يجب فيه التحديد، فإنه من جانب يجب أن نلاحظ أن القرآن نفسه ترك التحديد أحياناً أخرى عمداً، وهذا ما أشار إليه الاستاذ ماسنيون مما يدفع العقل إلى التفكير الفلسفي فيما هو مجال الفلسفة لفهم مايريد القرآن تماماً..)[2]

في ضوء ماتقدم نستنتج أن الآيات القرآنية التي تتعرض لعالم الغيب تتطلب مزيداً من التأمل والتدبر. إضافة إلى ماقررنا من سلوك منهج قويم في التفسير والتأويل تجنباً للشطط في الرؤية والوهم في التفكير والخلط في الفهم..

هذا المنهج الذي يقودنا حتماً إلى ما هدى السلف قبلنا بفطرتهم الصافية وحسهم اللغوي وحرصهم الايماني إلى سواء السبيل.

---

1 دراسة الكتب المقدسة ص146.

2 القرآن والفلسفة ص48.

ثبت المصادر والمراجع

1- ابن قيم الجوزية: عصره ومنهجه: د. عبدالعظيم عبدالسلام - الكليات الأزهرية - القاهرة - 1357هـ . ط1.

2- الاتقان في علوم القرآن: السيوطي (ت 911هـ) - المطبعة الحجازية/ مصر، 1368هـ.

3- الاعمال الكاملة للامام محمد عبده - تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للنشر/ بيروت، د. ت.

4- البرهان في علوم القرآن: الزركشي (ت 794هـ)، تحقيق أبوالفضل ابراهيم - مطبعة البابي الحلبي/ القاهرة - 1972م.

5- البيان والتعريف في اسباب ورود الحديث الشريف: أبوحمزة الحسيني (ت 1120هـ) - مراجعة سيف الدين الكاتب - دار الكتاب العربي/ بيروت 1981م.

6- تاريخ ابن الريوندي الملحد: د. عبدالامير الاغم: دار الآفاق الجديدة/ بيروت - 1975م، ط1.

7- تاريخ الادب العربي: بروكلمان، ترجمة د. عبدالحليم محمود.

8- تاريخ الفلسفة في الاسلام: دي بور، ترجمة د. أبوريدة - مطبعة لجنة التأليف والنشر/ القاهرة/ 1357هـ - 1938م.

9- تاريخ القرآن والتفسير: د. عبدالله شحاته، الهيئة المصرية للكتاب/ القاهرة 1972م.

10- تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة (ت 276هـ): تحقيق أحمد صقر - دار الكتب العربية/ مصر: د. ت.

11- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (ت 774هـ): دار الأندلس/ بيروت - 1966م، ط1.

12- تطور الاستشراق: د. عبدالجبار ناجي/ دار الجاحظ - الموسوعة الصغيرة، العدد 85.

13- التعبير القرآني: د. فاضل صالح السامرائي: دار الكتب - الموصل/ العراق 1988م.

14- التفكير الفلسفي في الاسلام: د. عبدالحليم محمود، مطبعة مخيمر/ نشر الانجلوالمصرية، 1964م.

15- تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية: الشيخ مصطفى عبدالرازق/ لجنة التأليف والنشر/ القاهرة 1966م، ط3.

16- التنبيه والردّ على أهل الأهواء والبدع: أبوالحسين الملطي (ت 377هـ)، تحقيق محمد زاهد الكوثري، نشر مكتب الثقافة الاسلامية - 1949م، ط1.

17- تنزيه القرآن عن المطاعن: القاضي عمادالدين عبدالجبار (ت 412هـ) - دار النهضة الحديثة/ بيروت - د. ت.

18- جامع البيان في تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري (ت 310هـ) /البابي الحلبي/ القاهرة 1954م - ط2.

19- الجامع لأحكام القرآن: ابوعبدالله القرطبي (ت 671هـ)/ دار الكتب المصرية، دار القلم/ القاهرة 1966م، ط3.

20- دراسات في أصول التفسير: د. محسن عبدالحميد - مطبعة الوطن العربي/ بعداد، 1400هـ - 1980م، ط1.

21- دراسات في الفكر الفلسفي الاسلامي. د. حسام الدين الآلوسي - المؤسسة العربية للنشر/ بيروت - 1980م، ط1.

22- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة: موريس بوكاي - ترجمة ونشر دار المعارف/ مصر 1978م.

23- درة التنزيل وغرة التأويل: الخطيب الاسكافي (ت 420هـ) دار الآفاق الجديدة/ بيروت 1973م، ط1.

24- دراسات في القرآن: د. أحمد السيد خليل: دار المعارف/ مصر 1972م.

25- الردّ على ابن الفريغلة: ابن حزم الاندلسي (ت 456هـ) - تحقيق د. احسان عباس، مطبعة المدني/ القاهرة/ 1960م.

26- روح المعاني: شهاب الدين الآلوسي، الطباعة المنيرية - دار احياء التراث العربي/ القاهرة، د. ت.

27- صحيح البخاري: الإمام البخاري (ت 256هـ)/ طبعة دار الفكر - أوفسيت - د.ت.

28- الطبقات الكبرى، ابن سعد الزهري (ت 230هـ)، دار صادر/ بيروت 1380هـ.

29- فلسفة الفكر الديني بين الاسلام والمسيحية: لويس غردية قنواتي: ترجمة وتعريب. د. صبحي الصالح، د. فريد جبر - دار العلم للملايين/ بيروت ط1 ج1/ 1967م، ط2 ج2، ط3 - 1969م.

30- الفهم المنطقي للقرآن: د. صالح الشماع (بحث) مجلة كلية الآداب/ بغداد 1961م. العدد (3)

31- القرآن والفلسفة. د. محمد يوسف موسى - دار المعارف/ مصر 1971م، ط3.

32- العقيدة والشريعة في الاسلام: كولدتسيهر: ترجمة د. محمد يوسف موسى وآخرون/ دار الكتاب/ القاهرة 1946م.

33- علي والفلسفة. الشيخ جواد مغنية - دار الكاتب العربي/ بيروت، د. ت.

34- مجمع البيان: الطبرسي: المطبعة الاسلامية/ طهران، د. ت.

35- مدخل الى المنطق: د. مهدي فضل الله: المؤسسة العربية للنشر/ بيروت، د. ت.

36- المستشرقون والاسلام: د. عرفان عبدالحميد، مطبعة الارشاد/ بغداد 1969م.

37- مسند ابن حنبل: الإمام احمد بن حنبل (ت 241هـ)، دار صادر/ بيروت، د. ت.

38- المعتزلة والحرية الانسانية: د. محمد عمارة، المؤسسة العربية للنشر/ بيروت 1972م، ط1.

39- مقدمة ابن خلدون: ابن خلدون - دار أحياء التراث العربي/ بيروت، د. ت. ط4.

40- المغني في باب العدل والتوحيد: القاضي الهمداني (ت 415هـ) - دار الكتب المصرية 1380هـ/ 1960م، ط1.

41- الملل والنحل: أبوالفتح الشهرستاني (ت 548هـ)، تحقيق محمد الكيلاني - دار المعرفة/ بيروت 1975م، ط1.

42- مناج تجديد: الشيخ امين الخولي - مطابع الكناني/ مصر/ 1961م، ط1.

43- من تاريخ الالحاد في الاسلام: د. عبدالرحمن بدوي/ مكتبة النهضة/ القاهرة/ 1945م.

44- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: أبوالفرج بن الجوزي/ ت 597هـ/ دار المعارف العثمانية/ 1357هـ.